

# المصنفات التربويّة بإفريقيّة في العهد الوسيط

د. منير رويس

المعهد العالي لأصول الدين بتونس.

أضحت إفريقية منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/8م منطقة متميزة في العالم العربي الإسلامي بنهضتها العلمية والثقافية. وكانت مدن القيروان وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس مراكز بارزة في هذه النهضة جاوز إشعاعها مجال إفريقية ليشمل كامل بلاد المغرب والأندلس وغيرهما من المناطق. وكان انتشار التعليم في الكتاتيب والمساجد والرباطات والمكتبات وراء هذا التطور. واخترنا في هذا العمل أن نتناول بالدراسة موضوع : "التعليم بالكتاتيب بإفريقية في العهد الوسيط" باعتباره قد أفرز مسائل اعتنى بها الفقهاء والمفكرون ووضعوا فيها تآليف خاصة. فكيف كانت الكتاتيب بإفريقية ؟ وما هي أهميتها في التعليم ؟ وما هي الكتب التي وضعت في تلك الفترة في ميدان التربية والتعليم ؟ وما هي أبرز محتويات هذه الكتب ؟

## 1) الكتابات بإفريقية في العهد الوسيط :

الكتاتيب لغة، جمع كُتّاب، وهو لفظ مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة. وقد يقال له المكتب، وهو موضع التعليم كمقعد<sup>(1)</sup>. والجمع المكاتب، والظاهر أنّ (كلمة كُتّاب، جمع كاتب، فأطلق المكان على من يعمل به، من باب إطلاق المظروف على الظرف). ويرى الفيروز أبادي أنّ في قول من يشير إلى أنّ الكتاب والمكتب بمعنى واحد خطأ لغوياً.

والكتاب هو أقدم المؤسسات العلمية التي عرفت مهنة التعليم، فدور الكتاب العلمي مذكور في العالم الإسلامي كلّ منذ عصور الإسلام الأولى وفي كافة المناطق التي يوجد فيها الإسلام.

وكان الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتابات تنشئة أولئك الصبيان تنشئة دينية عن طريق البرنامج الدراسي الذي يقدم فيها والقائم على إقراءهم القرآن وتحفيظهم إياه سواء كان كلاً أو جزءاً بالإضافة إلى ضرورة الإلمام بقواعد القراءة والكتابة وبعض المبادئ الفقهية التي تتصل بالصلاة والصوم والحج مع شيء يسير من علوم اللغة والنحو ومبادئ الحساب. والملاحظ أنّه لا توجد ازدواجية بين دور المساجد ودور الكتابات، فالمساجد والجوامع كان كيانها العلمي يعتمد على الحلقة والشيخ والتلميذ، بينما يقتصر الكتاب على الصبيان عن طريق تقديم محصلة علمية أولية تعتبر تمهيداً للالتحاق بالحلقة في المسجد.

لقد شهدت إفريقية ظهور الكتابات مبكراً. فقد كان الفاتحون يعلمون القرآن في الخيام وهم يتنقلون من مكان إلى آخر. والباحث عثمان الكعاك في كتابه "محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب" تحدث عن وجود "الكتاب الخيمي" في هذه المرحلة. ولما استقرّ المسلمون بالمنطقة صار الكتاب مؤسسة

(1) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، 126/1.

تعليمية ضرورية ومنتشرة في عدّة أماكن. ويروي الدّباغ في "معالم الإيمان" عن غياث بن أبي شبيب أنّ سفيان بن وهب - أحد الصّحابة الذين دخلوا إفريقية في خلافة عبد الملك بن مروان - كان يمرّ عليه وعلى زملائه من التّلاميذ في الكتّاب فيسلّم عليهم<sup>(2)</sup>.

وزاد عدد الكتّاتيب في كلّ مناطق إفريقيّة لما انتشرت النّقافة العربيّة الإسلاميّة بين سكّانها منذ القرن الثّاني للهجرة/8م. وكانت هذه الكتّاتيب إحدى وسائل انتشار هذه النّقافة.

وأشار الباحث عثمان الكعّاك إلى أهميّة الكتّاتيب في تعليم القرآن ونشر الإسلام واللغة العربيّة بين البربر السكّان الأصليين للبلاد. يقول الكعّاك : "...فدهشوا (البربر) من بلاغة هذا الكتاب المقدس (القرآن) وسحرتهم أحكامه، وفتنتهم مبادئه الأخلاقية السامية والتعاملية العادلة، وبهرتهم تعاليمه الحنيفة، فانتشر بينهم منذ النصف الأول من القرن الأول الهجري بواسطة الكتاب تلك المؤسسة البسيطة العظيمة التي هي مهد نشر الإسلام ورواج العربية"<sup>(3)</sup>.

لقد انتشرت هذه المؤسّسة التربوية في المدن والقرى بالدرجة الأولى ثم في البوادي والأرياف بالدرجة الثانية. ومن الحواضر والقرى التي وجدت فيها الكتّاتيب نذكر القيروان وتونس وبنزرت وسوسة والمهدية وصفاقس وقرى بلاد الجريد.

والواقع إنّ المصادر التي بين أيدينا من كتب تراجم وتاريخ وأدب لا تسعفنا بمعلومات كثيرة تتعلّق بالكتّاتيب من حيث أماكن تواجدها وأعدادها والمعلمين المشرفين عليها. فتبقى البيانات الموجودة مبعثرة وغير مكتملة.

(2) الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، حقّقه وعلّق عليه، الأخوان، الشيخ محمد المجذوب والدكتور عبد العزيز المجذوب، المكتبة العتيقة تونس1978، 1/151.

(3) الكعّاك، عثمان، البربر، سلسلة كتاب البعث، ع 5، تونس 1956، 114.

كانت الكتابات إما موجودة في محلات خاصة بها أو ملحقة بالمساجد. كما كانت توجد في القصور يرتادها أبناء الملوك والأثرياء طبعاً. وقد نقل لنا المالكي صاحب "رياض النفوس" قول أبي الربيع سليمان بن محمد في شأن إبراهيم القصري المؤدب (ت334هـ/945م) "كنت أدخل عليه -إبراهيم القصري- وهو يعلم الصبيان بالقصر"<sup>(4)</sup>. أي قصر الحكام.

وتظهر بعض المؤشرات أن الكتابات كانت كثيرة في إفريقية طوال القرون الأولى للحضور الإسلامي بالمنطقة. وأول المؤشرات : التصنيف في ميدان التربية والتعليم وهو دليل قاطع على وجود هذه المؤسسة التعليمية بإفريقية في تلك الفترة. لأن التصنيف عالج مسائل ترتبط بالكتابات والقائمين عليها والتلاميذ المستفيدين منها. وثاني المؤشرات هو الحركية العلمية والثقافية الحاصلة بإفريقية منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/8م مما يدل وجوباً على وجود الكتابات. لأن كل نهضة فكرية تمهد لها أرضية ملائمة منها كثرة المؤسسات التعليمية كالكتاتيب والمساجد والجوامع والمجالس الخاصة. وثالث المؤشرات هو ما ذكر في المصادر من أسماء بعض المؤدبين. لأن تردد ذكر المؤدبين ولو بقلة يدل على وجود الكتابات والإطار التربوي المشرف عليها. وسنذكر بعض أسماء المؤدبين والمعلمين المشهورين لاحقاً.

لقد ترك لنا الجغرافي ابن حوقل (ت367هـ/977م) نصاً معبراً يمكن استخدامه لنعرف مدى نجاح المسلمين في نشر الكتابات في مجتمعهم سواء أكان ذلك بإفريقية أو غيرها من المناطق. النص يهتم بصقلية وورد في كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل تحدث فيه عن كثرة الكتابات بصقلية. فقد ذكر هذا الجغرافي أنه عدّ حوالي ثلاثمائة كتاب في مدينة بلرمو Palerme بصقلية، كما

(4) المالكي، أبو بكر عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، حققه بشير البكوش وراجعته محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، 327/2.

ذكر أنّه رأى كتاباً واحداً يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلّمين. والسبب في تكاثر المعلّمين بصقلية حسب رأيه راجع إلى فرار كثير من الرّجال إلى هذه المهنة نقصاً من الجهاد. يقول ابن حوقل : "ففرع إلى التّعليم بلهم وحسنه لديهم جهلهم فراراً من الجهاد وشرفه والغزو وعزّه"<sup>(5)</sup>.

ونتوقف هنا عند بعض أسماء المعلمين والمؤدبين المشهورين الذين ذكروا في المصادر واشتهروا بالعلم والنّبوغ في التّعليم وغيره.

أبو علي شقران بن علي الهمذاني (ت 186هـ/802م)، عُرِف بزهده وكان يقرئ الناس مجاناً في كتّاب منسوب إليه في القيروان وكان إلى جانب ذلك من أشهر عبّاد وزهّاد إفريقية في وقته<sup>(6)</sup>.

والإمام أسد بن الفرات (ت 213هـ/827م) اشتغل في شبابه معلّماً في مكان قريب من نهر بجردة (مجردة)، وتحدّث بنفسه عن ذلك قائلاً : "...لما بلغت ثمانى عشرة سنة علّمت القرآن ببجردة..."<sup>(7)</sup>.

والداعية الشيعي أبو عبد الله الصنعاني كان معلم صبيان بإفريقية قبل أن تنتخبه الشيعة ليكون داعية لهم في المغرب. وقد حقق نجاحات كبيرة إذ ساعد على قيام ملكهم في بلاد المغرب. وولاه عبيد الله المهدي مؤسس الدولة، أميراً على القيروان ثم انقلب عليه وأمر بقتله سنة 298هـ/911م.<sup>(8)</sup>

وصاحب الثورة على الفاطميين أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار كان من المعلمين. عرفه ابن أبي دینار بقوله : " أبو يزيد مخلد بن كيداد ومولده ببلد السودان وأصل أبيه من مدينة توزر وهو زناتي الأصل وأتى أبوه

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، 126/1-129.

(6) المالكي، رياض النفوس، 222/1-229.

(7) المالكي، رياض النفوس، 255/1.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب، الدار العربية للكتاب، 129-124/1، 1989.

إلى المغرب لتعلم القرآن العظيم ... وكان يعلم أولاد المسلمين وكانوا يتصدقون عليه ... وسكن تقيوس ولزم بها مسجداً يعلم الأطفال. وكان يلبس جبة صوف وعلى رأسه قلنسوة صوف وفي عنقه سبحة...<sup>(9)</sup>.

وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي بن مسلم الجبنياني البكري (ت399هـ/1008م)، كان صاحب كتاب في قرينه يعلم الصبيان...<sup>(10)</sup>. والمعروف أن الجبنياني كان أحد أشهر الزهاد في وقته، وكان الفقيه محمد بن أبي زيد القيرواني يقول عنه : لو فخرنا بنو إسرائيل بعبادها لفأخرناهم بالجبنياني<sup>(11)</sup>.

ومن المعلمين البارزين الإمام الشهير محرز بن خلف بن أبي رزين البكري (ت413هـ/1022م). عمل معلماً للصبيان في تونس وعُرف بذلك، حتى كان يطلق عليه المربي محرز. وهذا العالم هو الذي نصح ابن أبي زيد القيرواني بكتابة "الرسالة" في الفقه المالكي الشهيرة.

ويعتبر الأديب الوزير أبو الحسن علي بن أبي الرجال من المؤدبين الخصوصيين الذين كانوا يؤدبون أولاد الأمراء والوزراء. وقد ذكر بأنه كان مؤدباً للأمير المعز بن باديس<sup>(12)</sup>. ومن المعلوم أن ابن أبا الرجال كان من الذين شجعوا المعز بن باديس على التتكر للذهب الشيعي والعودة إلى المذهب السني المالكي.

(9) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تونس 1350هـ، 51-52.

(10) القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعد أحمد بكير، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا 1403-1983، 501/2-516.

(11) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 500/2.

(12) ابن عذاري، البيان المغرب، 273/1.

وما من شك أنّ عدد المعلمين والمؤدّبين كان أضعاف ما ذكرنا خاصة لما تطورت الحياة العلميّة والثقافيّة بإفريقية انطلاقاً من نهاية القرن الثاني للهجرة/8م وصولاً إلى أواسط القرن الخامس للهجرة حيث تعرّضت البلاد إلى انتكاسة بسبب الزحف الهلالي.

وجود المؤدّبين ونشاطهم التعليمي والتربوي في الكتاتيب أفرز مسائل تتعلّق بالمعلمين والمتعلّمين. ومن المسائل الموادّ التعليميّة وطرق التعليم (أو التّأديب) ومعاملّة المتعلّمين ووقت التعليم والأجرة والإجازات وغيرها من القضايا المتصلة بالتربية والتعليم. وهذه المسائل هي التي جعلت الفقهاء والمفكرين بإفريقية يضعون فيها مؤلّفات.

## (2) مصنّفات التّربية والتعليم بإفريقيّة :

عرفت إفريقية إنتاج عدّة مصنّفات في التربية والتعليم صوّرت كلها واقع التّعليم المزدهر بإفريقية آنذاك ومدى العناية به.

### أ- كتاب "آداب المعلمين" لابن سحنون :

الكتاب الأول الذي نعتني به هو كتاب "آداب المعلمين". صاحبه هو محمد بن سحنون (ت256هـ/870م) العالم الشهير. أبوه الإمام سحنون بن سعيد صاحب "المدوّنة".

ولد محمد بن سحنون بالقيروان سنة 202هـ/256م وتربى بها. قرأ منذ صغره على أبيه وغيره من أعلام الفقه في ذلك الوقت. وارتحل إلى المشرق في طلب العلم شأن معاصريه فنّبغ وصار إماماً ثقة عالماً بالآثار وبمذهب أهل المدينة، ولم يكن في عصره أحد أجمع منه لفنون العلم. توفي بالقيروان ودفن بها سنة 256هـ/870م.

وقد امتاز محمد بن سحنون بكثرة تأليفه التي أبلغها المالكي صاحب كتاب "رياض النفوس" إلى مائتي كتاب، وهو عدد ضخم يدلّ على سعة اطلاعه وقدرته على الكتابة. وتناولت كتبه مواضيع الفقه والتربية والتاريخ. والكتاب الذي يهمنّا هو كتاب "آداب المعلمين" وموضوعه شؤون التعليم المتعلقة بالصبيان، وهو على صغره مهم جداً. وطبع هذا الكتاب مرات متعددة.

نشره لأول مرة الباحث حسني عبد الوهاب بتونس وطبعته مطبعة العرب سنة 1348هـ/1931م. واعتنى به في رسالة جامعية الدكتور أحمد فؤاد الأهواني عنوانها "التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي". ونشرها سنة 1350هـ/1930م ثم أعاد نشرها سنة 1968.

وتولى الدكتور محمود عبد المولى تقديمه وتحقيقه بنفس عنوانه "كتاب آداب المعلمين"، واستفاد في عمله من الطبعات السابقة للكتاب مع إضافات. كما طبع الكتاب ضمن بحث عنوانه "الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي" تحليل وتحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين، وصدر ضمن موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي، وتولت نشره الشركة العالمية للكتاب.

ويعدّ كتاب "آداب المعلمين" أول تصنيف في مجال التربية بإفريقية وهو مما دونّ محمد بن سحنون عن أبيه، ويعتبر "من الكتب الرائدة في التربية والتعليم، بل هو أقدم كتاب في هذا الميدان على ما نعلم" (13).

ويتضمن الكتاب مسائل تخص التربية والتعليم يمكن توزيعها على العناصر التالية :

---

(13) انظر ابن سحنون، محمد، كتاب آداب المعلمين تقديم وتحقيق مقارن الدكتور محمود عبد المولى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية، 1981، (من المقدمة ص 61).



- مسائل القرآن : ومنها فضل تعليم القرآن وحفظه، وطريقة تحفيظه، وكتابته على الألواح، وختمته، وإجارة المصحف.

- مسائل المعلمين : ومنها إجارة المعلم وعطية العيد، وإمكانية استعانة المعلم بـ(عريف)، وضرورة التزام المعلم بالحضور في أوقات معلومة. وقيامه بتدريس مواد تعليمية منها الإلزامية كالقرآن والقراءة والكتابة. ومنها الاختيارية التي تدرّس حسب رغبة التلميذ أو الولي.

- مسائل المتعلمين : ومنها عناية المعلم بهم دون ميز بين غنيهم وفقيرهم. وتحديد أيام راحتهم (العطلة)، وأنواع عقاب المخالفين منهم وطرقه، وعدم الإفراط في تسليط العقوبة عليهم.

ومن هذه المسائل استخرجنا استشهادات سنستعملها في العنصر الموالي من الموضوع.

#### ب- كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم" لابن الجزار :

ثاني مصنف يهمنّا هو كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم" للطبيب ابن الجزار. وهذا الطبيب هو أحمد بن إبراهيم بن خالد المعروف بابن الجزار (ت369هـ/980م). عاش بالقيروان وكان بارعا في عدة علوم على رأسها الطب يليه الفقه والتاريخ. وله مصنّفات كثيرة في الطب والتاريخ والتربية. وكتابه الذي يهمنّا هنا هو كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم". والكتاب هو في الواقع كتاب طبي بالدرجة الأولى ويحتوي على باب بالغ الأهمية في التربية والتعليم. وتولى الدكتور محمد الحبيب الهيلة تحقيق الكتاب وتقديمه، ونشره لأول مرة بتونس سنة 1968، كتب في مقدمة تحقيقه ما يلي : "يحتوي الكتاب على اثنين وعشرين بابا، الأبواب الستة الأولى تحدّث فيها عن حفظ صحة الطفل وتدبيره عند الولادة مع شروط المرضعة وأنواع اللبن وطرق تحسينه،

ثم انتقل إلى الأمراض التي تعرض للصبيان فتناول فيها موضوع مداواتها على ترتيب أعضاء الجسم من الرأس إلى الأسفل، من الباب السابع إلى الواحد والعشرين، أما الباب الثاني والعشرون فقد تحدث فيه عن طباع الصبيان وتربيتهم...<sup>(14)</sup>.

ويتضمن هذا الباب الثاني والعشرون معلومات قيمة تهم التربية والتعليم نستشهد ببعض ما جاء فيها في باقي عناصر هذه الدراسة.

### ج- " أحكام المعلمين والمتعلمين " لابن أبي زيد القيرواني :

المصنف الثالث "أحكام المعلمين والمتعلمين" كتبه فقيه القيروان الشهير ابن أبي زيد. وهذا الفقيه هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، (310-386هـ/922-996م). أصيل نفزة بالجنوب التونسي. ولد بالقيروان وبها نشأ وتعلم.

تتلمذ على عدد من كبار شيوخ القيروان منهم أبو بكر محمد بن محمد اللباد وكان أفضل من أخذ عنهم وأبو الحسن حسن بن محمد الخولاني وأبو العرب محمد بن أحمد بن تميم ومحمد بن موسى القطان وغيرهم. وفي رحلته إلى الحج سمع ابن أبي زيد من عدد آخر من شيوخ المشرق.

وصار ابن أبي زيد علما شهيرا بعلمه وفقهه زيادة على ورعه وتقواه. قال عنه القاضي عياض : إنه : "حاز رئاسة الدنيا والدين وكان يُسمى مالكا الصغير، انتفع به خلق كثير في العلم والأخلاق ورحل إليه من أقطار الأرض

---

14) ابن الجزار القيرواني، أحمد، سياسة الصبيان وتدريبهم، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، 1968.

وكثر الآخذون عنه وعظم شأنهم، عُنِيَ بمذهب مالك فلخصه ونشره وملا البلاد بتأليفه العظيمة الفائدة..<sup>(15)</sup>.

وعاش ابن أبي زيد بالقيروان طوال حياته ولما توفي دفن فيها بمنزله.

له أزيد من ثلاثين تأليفا تناولت مواضيع مختلفة كالعقيدة والفقه والقرآن وغيرها وكتبها في أشكال مختلفة كالكتب والرسائل والردود. وأشهر تأليفه : "الرسالة الفقهية". و"مختصر المدونة"، و"النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من الأمهات".

وإلى جانب هذه الكتب الكبيرة والضخمة الشهيرة كتب ابن أبي زيد في التربية والتعليم وهو ما يهنا.

ذكر عبد الرحمان بن خلدون أنه ألف كتابا عنوانه "أحكام المعلمين والمتعلمين". وقيل "حكم المعلمين والمتعلمين"<sup>(16)</sup>. ووجود الكلمتين (أحكام) و(حكم) مرده اختلاف فهم رسم الكلمة التي وقع تحويلها من النسخ المخطوطة إلى المطبوعة. يقول ابن خلدون : في معرض حديثه عن عدم أخذ المتعلمين بالشدة : "وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في "حكم المعلمين والمتعلمين" لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا".<sup>(17)</sup>.

وذكر ابن فرحون صاحب "الديباج المذهب" أن ابن أبي زيد ترك رسالة عنوانها "طلب العلم"<sup>(18)</sup>. وعنوان "طلب العلم" هو ما وجد في ترجمة ابن أبي

(15) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 492/1

(16) ابن خلدون، المقدمة، 597.

(17) ابن خلدون، المقدمة، 597.

(18) ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1996، 222-223.

زيد في كتاب "العمر" للباحث حسن حسني عبد الوهاب. وورد في تعاليق هذه الترجمة ما يلي : "ولعل هذه الرسالة التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته ... وسماها "أحكام المعلمين والمتعلمين" أو "حكم المعلمين والمتعلمين" [حسب الطبعة المستعملة]» (19).

نحن إذا أمام تصنيف قد يكون "كتاباً" حسب ابن خلدون أو "رسالة" حسب ابن فرحون. لكننا لا يمكن أن نجزم بأحد النوعين لعدم وجود هذا التصنيف في الوقت الحاضر. وننبه في هذا المجال إلى أن الباحث هادي روجي إدريس<sup>(20)</sup> شكك في صحة نسبة هذا التصنيف لابن أبي زيد القيرواني. وقد يكون ابن خلدون قد خلط بين محمد بن سحنون وابن أبي زيد القيرواني. لأن هذا الأخير يحمل اسم عبد الله وليس اسم محمد كما ذكر ابن خلدون.

ونعتقد أن ابن خلدون صادق في نسبة هذا الكتاب لابن أبي زيد لأنه عرف بتحريره في انتقاء المعلومات. ويتأكد لدينا ذلك لما نجد ابن فرحون يوافق ابن خلدون في نسبة هذا التصنيف لابن أبي زيد بالرغم من أنه يشير إلى أنها رسالة وليست كتاباً.

من جهة أخرى كتب ابن أبي زيد القيرواني رسالة في طريقة قراءة القرآن وترتيبه. الرسالة بعثها إلى أهل سجلماسة بالمغرب الأقصى الذين تعودوا على إرسال أبنائهم إلى القيروان لطلب العلم. الرسالة عنوانها "رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن". وقد اتفقت كل المصادر على وجود هذه الرسالة لكننا لا نعرف محتواها والظاهر من عنوانها أنها رسالة تعليمية.

(19) الترجمة الواردة في كتاب العمر من إنجاز مراجعي الكتاب ومكتمليه محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. انظر : عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، 1/648، التعليق 10.

(20) إدريس، الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، نقله إلى العربية حمادي الساطي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، 388/2.

إنّ الجانب التعليمي والتربوي واضح في شخصية ابن أبي زيد ويتجلى ذلك في حياته وفي مصنفاته. فكان يوجه جهوده لشرح ما غمض من العلوم وتبسيطه للناس. كما كان يوجه أعماله للكبار وللصغار معا. فقد اهتم بكتاب الإمام سحنون "المدونة" وجعل له مختصرا ليسهل على المتعلم استيعابه. ووضع للمبتدئين من المتعلمين "الرسالة الفقهية" التي يقبل على قراءتها التلاميذ بدءا من مرحلة الكتاب.

والرسالة بدورها مختصر في الفقه المالكي كتبها ابن أبي زيد تلبية لرغبة ابن خالته عالم مدينة تونس محرز بن خلف (ت413هـ/1022م).

وجاء في مقدمة هذه "الرسالة" ما يلي : " أما بعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقد الأفئدة، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها، ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن لينسبوا إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى له بركتهم وتحمد لهم عاقبته فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسك ولك ثواب من علم دين الله أو دعا إليه... " (21).

والواضح من خلال كلام ابن أبي زيد أن غرض تأليفها تعليمي بالدرجة الأولى وعمله موجه أساسا للولدان الذين يجب أن يتعلموا مبادئ الفقه كما يتعلموا حروف القرآن. وذلك لترسيخ عقيدتهم.

(21) ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، دت، 4.

وبما أن "الرسالة" موجهة للصغار والمبتدئين في التعليم فقد جعلها صاحبها يسيرة الفهم والحفظ. ولـ"الرسالة" طريقتها المباشرة في تقرير المسائل. وهي بمثابة برنامج دراسي قُصد به انتقاء رؤوس المسائل دون توقف عند الخلافات والتعليقات المتنوعة. وهو ما يعكس اهتمام المالكية بغرس ثقافتهم الخاصة بين صفوف الناشئة وقد كان ذلك من أبرز العوامل التي أسهمت في ترسيخ المذهب المالكي بإفريقية.

ونذكر فيما يلي محتوى "الرسالة"، وهو متن عرضه صاحبه في خمسة وأربعين بابا بالإضافة إلى مقدمة طويلة نسبيا (حوالي ثلاث صفحات) وخاتمة قصيرة جدا (بضعة أسطر). وتناولت أبواب "الرسالة" العقيدة والعبادات (من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج) ثم تناولت الجهاد في سبيل الله وتطرقت إلى الجوانب العملية الحياتية للإنسان كالنكاح وتوابعه والبيع والربا وأحكام العبيد والشهادة والحبس وملبس الإنسان ومأكله ومشربه وتعامله مع الآخرين. ثم تناولت العلاج والرقيا والطيرة وانتهت "الرسالة" بباب في الرؤيا والتشاؤم والعطاس واللعب بالنرد وغيرها وسبق الخيل والرمي وغير ذلك.

والأكيد أن تلاميذ الكتاتيب لا يقدرّون على تعلم كل ما جاء في "الرسالة" فإن معلمهم يقتصرون على أجزاء منها خاصة في كل ما يتعلق بالعبادة كتعليمهم طريقة تأدية الصلاة أو ما يتعلق بالأخلاق الفاضلة كطاعة الوالدين ورد السلام.

ولئن كانت هذه الرسالة موجهة إلى تلاميذ الكتاتيب بالدرجة الأولى فإنها صارت موجهة إلى كل المتعلمين الراغبين في حفظ مبادئ الفقه المالكي. ودأب الشيوخ على تعليمها بالكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس فيما بعد. ونظرا لتطور الحياة الفكرية والاجتماعية فقد تناول العلماء - بإفريقية وغيرها من المناطق - هذا التأليف الصغير بالاعتناء فشرحوه وعلقوا عليه عشرات المرات.

تحدث بروكلمان عن وجود ثمانية وعشرين شرحاً وحاشية "للرسالة"<sup>(22)</sup> نذكر منها : شرح عبد الله بن يوسف البلوي الشيببي القيرواني (ت782هـ/1380م). وشرح القاسم بن عيسى بن ناجي (ت837هـ/1433م). وشرح أحمد زروق المغربي (ت899هـ/1893م). وشروح أبي الحسن علي بن محمد المنوفي الشاذلي (ت939هـ/1532م) بعنوانين "الفتح الرباني". و"الوسط" أو "تحقيق المباني". و"كفاية الطالب". و"غاية الأمانى". وشرح أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا النفراوي (ت1125هـ/1713م).

ومن الحواشي نذكر "حاشية على شرح كفاية الطالب" لعلي بن أحمد بن مكرم العدوي الصعيدي المنافسي (ت1189هـ/1775م)

#### د- "الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" للقباسي :

ثالث مصنف تربوي يهمنها هو "الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" لأبي الحسن علي القباسي (ت403هـ/1012م).

والإمام القباسي هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القباسي. ولد بالقيروان في رجب لست ليال مضين منه سنة 324هـ/926م. عاش في زمن اختص بحركيّة علميّة وثقافيّة متميّزة بمدن إفريقيّة. فقد تعدّدت مراكز العلم والثقافة من كتاتيب ومساجد ومجالس علميّة مختلفة مما أوجد نخبة من العلماء البارزين منهم القباسي.

وزيادة على تعلّمه بإفريقيّة فقد ارتحل القباسي إلى المشرق لأداء فريضة الحج وفي طريقه اتصل بكبار شيوخ مصر كما اتصل بشيوخ الحجاز. وبعد خمس سنوات عاد إلى القيروان سنة 357هـ/967م.

(22) بروكلمان، كارل، تاريخ الأئمة العربي، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحميد النجار الطبعة الخامسة دار المعارف. القاهرة الطبعة الخامسة دار المعارف القاهرة 3/286-290.

وصار أبرز "إمام المذهب المالكي بلا منازع في القيروان، لا سيما بعد وفاة ابن أبي زيد (القيرواني)" (23) و"كان واسع الرواية، عالما بالحديث وعلمه ورجاله، فقيها أصوليا، متكلمًا مؤلفًا مجيدا. وكان من الصالحين المتقين" (24).

ألف القابسي في مجالات متعدّدة وقيل إنه ألف سبعة عشر تصنيفا وهو قول ابن فرحون (25) ومنهم من قال إنها عشرة فقط وهو قول الدبّاغ (26) وعدها محمّد محفوظ ثمانية عشر مؤلفا (27). وامتازت هذه التّأليف بالتّنوّع فشملت مواضيع الفقه والتّربية. والتّأليف الذي يهمنها هو كما قلنا "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين". وكان الدكتور أحمد فؤاد الأهواني هو أول من نشر هذه الرّسالة في كتابه "التّربية في الإسلام" الذي صدر في مصر سنة 1945 وسنة 1968. ثمّ إنّ الباحث أحمد خالد أصدرها مع ترجمة باللغة الفرنسية وتعليقات في تونس سنة 1986. كما أوردها كاملة مع تحليل وتحقيق الدكتور عبد الأمين شمس الدّين في كتاب عنوانه "الفكر التّربوي عند ابن سحنون والقابسي"، وصدر ضمن "موسوعة الفكر التّربوي العربي الإسلامي" التي نشرتها الشّركة العالميّة للكتاب ببغروت عاصمة لبنان سنة 1990.

وجاءت "الرّسالة" في أغلبها في شكل فتاوى فقهية أجاب بها الإمام القابسي على أحد مخاطبيه. وتتناول بالدراسة مبادئ التّربية الإسلامية المتّبعة في الكتاتيب، وعلاقة المعلمين بالمتعلّمين كالحديث عن إجارة المعلم والهدايا

(23) إدريس، الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، 337/2.

(24) ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين، (ت1396/799)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان 1996، 296.

(25) ابن فرحون، الديباج المذهب، 297.

(26) الدبّاغ وابن ناجي، معالم الإيمان، 136-135/3.

(27) محفوظ، تراجم المؤلّفين، 48-49/4.



المقدمة إليه، والعقوبة المسلطة على المتعلمين بالكتاتيب بإفريقية... وانتهت الرسالة ببحث في القراءات القرآنية المتفق عليها. وتعدّ الرسالة بذلك وثيقة تاريخية حول طرق التعليم ومراكزه بإفريقية في تلك الفترة. وهي ثاني كتاب في هذا المجال بعد كتاب محمد بن سحنون المذكور الذي نقل منه القابسي فصولا كاملة وضعها في كتابه. وإن كان القابسي قد نقل عن ابن سحنون فإن له مزية التوسع والإفاضة في أبوابه. وابن سحنون قد سجل ملاحظاته حول التعليم في القرن الثالث، أما القابسي فكتب عن القرن الرابع<sup>(28)</sup>.

توفي أبو الحسن القابسي بالقيروان سنة 403هـ/1012م وله من العمر ثمانون سنة إلا خمسة أشهر، ودفن بمقبرة بباب تونس بالقيروان.

#### هـ - فصول في التربية والتعليم لابن خلدون :

لم يخصص المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون (ت808هـ/1406م) كتابا كاملا في التربية والتعليم وإنما وضع له فصولا كاملة في مقدمة كتابه "العبر". وتتضمن هذه الفصول آراء ابن خلدون في التربية والتعليم وتوجد في القسم المخصص بالعلوم. وبعد أن تعرض ابن خلدون إلى التعليم للعلم وجعله من جملة الصنائع عرض أصناف العلوم وناقش مسائل تتعلق بالكتب والمختصرات والحفظ. كما تطرق إلى طرق معاملة المتعلمين واعتبر أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. وزاد بعد ذلك في تفصيل الحديث في علوم اللسان العربي، واللغة العربية، وفي نوعي الكلام من نظم ونثر. ومن خلال هذه الفصول تتجلى مواقف ابن خلدون من التربية والتعليم. و"ينكشف للدارس أن اشتغال ابن خلدون بالمناهج التربوية داخل ضمن اشتغاله بعلمه المبتكر المسمى عمرانا

(28) بونار، رايح، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الجزائر 1981، 246.

بشرياً أو علم الاجتماع في الاصطلاح العصري وهو عند ابن خلدون علم يبحث في شؤون البشر من حيث الملك والكسب والصنائع والعلوم".<sup>(29)</sup>

### (3) نماذج من مسائل التربية والتعليم من خلال مصنفات إفريقية التربوية :

تناولت مصنفات افريقية التربوية عدّة مسائل تخص التربية والتعليم ننظر في بعضها فيما يلي :

#### أ- البرنامج أو منهاج التدريس ومواده :

للكتاتيب أهداف تربوية عامة حددها أصحابها، منها الاهتمام بالآداب الاجتماعية حيث يقوم المعلم بتأديب الأطفال، وتربيتهم التربية الصالحة، وتعويدهم العادات الحسنة، وتعليمهم كيفية احترام الناس، ومراعاة الذوق والأدب طبقاً للعرف الجاري، وأن يلقي السلام على من يدخل عليهم، أو يمر بهم من الناس، ويأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، ويضربهم على إساءة الأدب، والفحش من الكلام وغير ذلك من الأفعال السيئة.

أما مواد التدريس بالكتاتيب فتتشابه مع ما كان قائماً من المناهج في كل العالم الإسلامي آنذاك. والمواد التي تدرّس في الكتاتيب تتمحور حول القرآن الكريم والقراءة والكتابة والفقه.

والقرآن هو المادة الرئيسية الأولى التي يأخذها التلاميذ بالكتاب. وعليها يدفع الأولياء الأجرة للمعلمين. وقد نقل ابن سحنون الأحاديث النبوية التي تحت

---

(29) خالد، أحمد، "مع ابن خلدون في منهجه التربوي"، مقال وارد في كتاب شخصيات وتيارات، تونس 1976، 36.

على تحفيظ القرآن ومنها الحديث الذي رواه عن علي بن أبي طالب وجاء فيه :  
(خيركم من تعلّم القرآن وعلمه)<sup>(30)</sup>.

وفي "مقدمته" أشار ابن خلدون إلى أهمية تعليم القرآن للأطفال وفوائد ذلك وقال : " اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من ينبني عليه." <sup>(31)</sup>.

ويتقاضى المعلم أجره عند تعليم التلاميذ القرآن كاملا وتسمى "الختمة" أو تعليمهم مقدارا منه. ونقل ابن سحنون قول الإمام مالك بجواز تعليم القرآن بالأجر. قال مالك : "ولا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن وإن اشترط شيئا كان حلالا جائزا ولا بأس بالاشتراط في ذلك. وحق الختمة له واجب اشترطها أو لم يشترطها..." <sup>(32)</sup>.

ومن الشواهد التاريخية على تقاضي المعلم أجره على تحفيظ القرآن ما وجدناه في كتاب "رياض النفوس" للمالكي. جاء في النص أن القاضي عبد الله بن غانم دخل عليه ابنه "وقد انصرف من المكتب، فسأله عن سورته، فقال له الصبي : حولني المعلم من سورة الحمد، فقال اقرأها، فقرأها فقال له : تهجّها، قال (أي راوي القصة) فتهجّاها، فقال ارفع ذلك المقعد فرفعه فإذا تحته دنائير كثيرة، فقال وأبو عثمان شاك في عددها - أي الراوي - إلا أنها أكثر من

(30) ابن سحنون، آداب المعلمين، 70. والحديث رواه البخاري في صحيحه.

(31) ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، طبعة دار الجيل، بيروت، دت.، 594.

(32) ابن سحنون، آداب المعلمين، 73-74.

العشرة ودون العشرين. قال فحملها إلى معلّمه فدفعها له. فأنكر المعلّم ذلك وأتى بها إلى ابن غانم وأخبره أنّ الصبي أتاها بها. فقال له ابن غانم كالمعتذر : لم يحضرني غيرها يا معلم، أتدري ما علّمته، علّمته الحمد لله رب العالمين، لحرف واحد مما علّمت خير من الدنيا وما فيها" (33).

وتتصل بالقرآن وتحفيظه مسألة استعمال الألواح في الكتابة وكيفية محوها الذي يجب أن يكون بالأيدي لا بالأرجل. علما بأن محو الألواح بقي عادة متبعة في الكتاتيب عبر العصور. وبعد حوالي قرنين من زمن ابن سحنون صاحب كتاب "آداب المعلمين" تحدث المالكي في "رياض النفوس" عن أحد القيروانيين، كان يحفظ القرآن باستعمال اللوح، وكان يكتب على اللوح ثم يمحو ما كتب بعد الحفظ واستمر على ذلك حتى اختتم القرآن كله. جاء في النص ما يلي : "كان إسماعيل (بن رباح) في صغره يحضر المكتب فإذا حفظ ما في لوحه غسل ما فيه من القرآن في إناء، وشربه، فهذا كان دأبه حتى ختم." (34).

ومن الحديث عن القرآن وتحفيظه نذكر أيضا وجود المصاحف في الكتاتيب وقد تحدث ابن سحنون عن استعمالها وأجاز إجارتها (35).

وليس القرآن وحده هو الذي يتعلمه التلميذ بالكتاب بل توجد مواد أخرى يمكن أن يتعلمها ولكن دون أن يلزم المعلم بها بل تكون برضاه وبمقابل. ويحتوي الاستشهاد التالي من كتاب "آداب المعلمين" على المواد اللازمة التي يجبر المعلم على تعليمها للصبيان والمواد غير اللازمة التي للتلميذ أو لوليّه حرية اختيارها كمادة تعليمية إضافية يكلف المعلم بتلقينها لتلميذه.

(33) المالكي، رياض النفوس، 1/145-146.

(34) المالكي، رياض النفوس، 1/334.

(35) ابن سحنون، آداب المعلمين، 93.

قال ابن سحنون : "وينبغي له - المعلم - أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط عليه ذلك، وكذلك الشعر والغريب، والعربية، والخط، وجميع النحو هو في ذلك متطوع، وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن وذلك لازم له والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل يلزمه ذلك ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش، ومن كلام العرب وأخبارها، وليس ذلك بواجب<sup>(36)</sup>".

وهكذا يتبين أن تحفيظ القرآن هو المادة الأساسية في الكتاب بإفريقية وتسبق كل المواد الأخرى التي يمكن للتلميذ حفظها كالقراءة والكتابة والشعر.

أما الفقه فهو من المواد التي يعلمها المعلم لتلاميذه. جاء في كتاب ابن سحنون ما يلي : "... ويلزمه (المعلم) أن يعلمهم الوضوء والصلاة لأن ذلك دينهم، وعدد ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير وكيف الجلوس، والإحرام والسلام، وما يلزمهم في الصلاة، والتشهد، والقنوت في الصبح، فإنه من سنة الصلاة.<sup>(37)</sup> ويبدو أن كتب الفقه لم تكن مستعملة في الكتاب وقت ابن سحنون. فقد نقل عن والده الإمام سحنون أنه لا يجوز إجارة كتب الفقه<sup>(38)</sup>. لكن وبعد ما يربو عن القرن من الزمن بقليل صارت الكتابات تستعمل "الرسالة الفقهية" التي ألفها ابن أبي زيد وخصصها لتعليم الولدان مثلما ذكرنا سابقاً.

ونختم عنصر البرنامج أو منهاج التدريس ومواده بالإشارة إلى أن ابن خلدون انتقد الطرق المستعملة في تعليم الأطفال في بلاد المغرب في عصره. وهي الطرق التي صارت تقتصر على تعليم القرآن الذي يؤدي حسب رأيه إلى قصور ملكة اللسان العربي، لأن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لغوية لأن

(36) ابن سحنون، آداب المعلمين، 82.

(37) ابن سحنون، آداب المعلمين، 85.

(38) ابن سحنون، آداب المعلمين، 94.

البشر مصروفون عن الإتيان بمثله. وقارن ابن خلدون بأهل الأندلس الذين استفادوا من تعليم اللغة والأدب واكتسبوا ملكة لغوية تميزوا بها، ولكنهم قصرُوا في علوم القرآن والحديث حسب متابعة الصبي للتعليم أو عدمه.

واستحسن ابن خلدون الطريقة التي اقترحها القاضي أبو بكر بن العربي، وهي طريقة تقوم على البدء بعلوم اللغة والأدب، ثم الانتقال إلى الحساب، ثم الانتقال إلى القرآن فيتيسر للمتعلّم بذلك فهمه، ثم أصول الفقه ثم الجدل في الحديث وعلومه، مع مراعاة أن لا يُخلَطَ علّمان إلا إذا كان المتعلّم فائق الذكاء. لكنه قرر أن لهذه الطريقة خطورة وهي إن لم يتابع المتعلّم دراسته فلن يصل إلى مرحلة دراسة القرآن، كما أنه قد يتمرد في سن الشباب على دراسة القرآن إيثاراً للهو ونزعات الشباب<sup>(39)</sup>.

#### ب- مسألة العقاب في التربية والتعليم<sup>(40)</sup> :

تناولت مصنفات التربية المذكورة مسألة العقاب في التربية وأحاطوها بسياج من الشروط والقيود، وجعلوها تالية للمدح، وقدموا عليها الرفق، عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه ﴾<sup>(41)</sup>.

(39) ابن خلدون، المقدمة، 594-596. وانظر للاستزادة في معرفة آراء ابن خلدون التربوية : مقال أحمد خالد المذكور "مع ابن خلدون في منهجه التربوي" الوارد في كتاب شخصيات وتيارات، 35-45. والدكتور ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، دار ابن كثير ومكتبة دار التراث، 225، 1985-233.

(40) انظر : خالد، أحمد، "العقوبة عند المربين التونسيين في القرون الوسطى"، مقال وارد في كتاب شخصيات وتيارات، 46-64، وقد عرض فيه آراء التربويين المسلمين في العقوبة مع محاولة الأخذ بما جاء في علم النفس التجريبي.

(41) حديث رواه مسلم في صحيحه.

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه ﴾<sup>(42)</sup>. وممن تكلم في هذا الموضوع : الفقيه محمد بن سحنون، والإمام أبو الحسن القابسي، والطبيب ابن الجزار القيرواني، والمؤرخ ابن خلدون وغيرهم.

قال ابن سحنون : "... ولا بأس أن يضربهم - يعني المعلم - على منافعهم، ولا يجاوز بالأدب ثلاثاً إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا أذى أحداً. ويؤدّبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأما على القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثاً"<sup>(43)</sup>.

ويعلل ابن سحنون ذلك بقوله : "لأن عشرة غاية الأدب، وكذلك سمعت مالكا يقول : وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا في حد).

وقد جاء في وصية ابن سحنون لمعلم ولده : "لا تؤدّبه إلا بالمدح ولطف الكلام، وليس هو ممن يؤدّب بالضرب والتعنيف"<sup>(44)</sup>. وزاد ابن سحنون الحديث في الموضوع ذاته ومما جاء في قوله<sup>(45)</sup> أنه : لا يجوز له أن يضرب رأس الصبي ولا وجهه. ويكون الضرب بالدرّة أو الفلقة، ولا يجوز أن يكون بالعصا أو اللوح. وإذا أفرط المعلم وجاوز الحد المشروط في الأدب (العقاب) وحصل الأذى بالتلميذ، فإنه يحاسب على ما فعل. قال ابن سحنون : "وإذا أدّب المعلم الصبي الذي يجوز له فأخطأ، ففقأ عينه، أو أصابه فقتله، كانت على

(42) حديث رواه مسلم في صحيحه.

(43) ابن سحنون، آداب المعلمين، 76-77.

(44) المالكي، رياض النفوس، 1/443.

(45) ابن سحنون، آداب المعلمين، 81-83-95-97. والدرّة هي : السوط للضرب. والفلقة : عود يُربط حبل من أحد طرفيه إلى الآخر وتجعل رجلا المذنب داخل ذلك الحبل وتشدّ فيضرب عليهما.

المعلم الكفارة في القتل، والدية على العاقلة إذا جاوز الأدب. وإذا لم يجاوز الأدب، وفعل ما يجوز له فلا دية عليه، وإنما تضمن العاقلة من ذلك ما يبلغ الثلث في ماله<sup>(46)</sup>.

ويلتقي أبو الحسن القابسي مع ابن سحنون في ضرورة الفرق بالصبيان وعدم تجاوز الثلاثة في التأديب، وإنما يلجأ إلى الضرب فقط عندما لا ينفع العذل والتفريع بالكلام الذي فيه التوعد من غير شتم ولا سب لعرض، يقول أبو الحسن القابسي: "وإذا استأهل الضرب فاعلم أن الضرب من واحدة إلى ثلاث، فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد رتبة فوق استئهاها، وهذا هو أدبه إذا فرط فتثاقل عن الإقبال على المعلم، فتباطأ في حفظه، أو أكثر الخطأ في حربه، أو في كتابة لوحه".

ولئن سمح القابسي للمعلم بمعاقبة التلاميذ بهذا القدر من الضرب، فإنّه علّق ذلك على مدى استئها التلميذ لذلك، وقيدته بثلاثة، واشترط في تجاوز الثلاثة إلى العشرة مشورة أبي الصبي أو ولي أمره ومدى احتمال الصبي للضرب فوق الثلاثة إذا استأهل ذلك، وألا يتعدى أثر الضرب الألم إلى التأثير المشنع أو الوهن المضّر. وعلى الجملة: فالمعلم عنده عوض عن الأب بالنسبة إلى الصبيان "فهو المأخوذ بأدبهم، والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم، والقائم بإكرامهم على مثل منافعهم، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم، ولا من رحمته إياهم، فإنما هو لهم عوض من آباءهم"<sup>(47)</sup>. ويعلل القابسي ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (اللهم

46 ابن سحنون، آداب المعلمين، 95. والدية هي: غرامة القتل. والعاقلة: جمع عاقل، وهو دافع الدية ويكون من غضبات القاتل كآباء القاتل وأبناؤه...

47 القابسي، الرسالة المفصلة، 1986، 128.



من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به<sup>(48)</sup>، وقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يحب الرفق في الأمر كلّه)<sup>(49)</sup>.

ولم يكن التحذير من الشدة على المتعلمين لترضي كل المعلمين. فقد جاء في كتاب "ترتيب المدارك" للقاضي عياض أنّ أبا إسحاق الجبنياني (ت369هـ/979 م) انتقد محمد بن سحنون في عدم شدّته على التلاميذ وقال : "رحم الله محمد بن سحنون، لو علّم لرفق بالمتعلمين - يريد لأنه شدّد عليهم في كتابه - ..."<sup>(50)</sup>.

كما أنّ الطبيب ابن الجزار تطرّق بدوره إلى مسألة عقاب التلاميذ. فتحدّث عن الفرق بين الصبيان في مدى قبولهم للأدب، إذ منهم من يتقبل الأدب قبولاً سهلاً، ومنهم من لا يقبل ذلك، ومنهم من إذا مدّح تعلم علماً كثيراً، ومنهم من يتعلم إذا عاقبه المعلم ووبخه، ومنهم من لا يتعلم إلا إذا استعملت معه أساليب أشدّ تعنيفاً كالضرب مثلاً. ولذلك قرر ابن الجزار مراعاة هذه الفروق الفردية، وإتباع الأسلوب المناسب لتأديب كل صبي بما يناسبه من الأساليب، حيث قال : "قاماً إذا كان الصبي طبيعته جيدة، أعني : أن يكون مطبوعاً على الحياء وحب الكرامة والألفة محباً للصدق، فإن تأديبه يكون سهلاً، وذلك أن المدح والذم يبيلغان منه عند الإحسان أو الإساءة ما لا تبلغه العقوبة من غيره، فإن كان الصبي قليل الحياء، مستخفاً للكرامة، قليل الألفة، محباً للكذب،

(48) ورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد بالصيغة الآتية : حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا وكيع قال : حدثنا جعفر بن برقان، عن عبد الله البهي، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فشق عليه.

(49) حديث رواه البخاري في صحيحه.

(50) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 515/2.

عسراً تأديباً، ولا بد لمن كان كذلك من إرهاب وتخويف عند الإساءة، ثم يحقق ذلك بالضرب إذا لم ينجح التخويف<sup>(51)</sup>.

أما المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون فقد جعل في "مقدمته" فصلاً عنوانه "في أن الشدة على المتعلمين مُضرة بهم". وأشار في هذا الفصل إلى الأضرار الخطيرة التي تعود على الفرد في مرحلة الرشد، وعلى المجتمع بأسره نتيجة الشدة والتعنيف في تأديب الولدان في الصغر، وما ينجز عنها من فساد وسوء خلق وتعوّد على الكذب والخبث والكيد والمكر والخديعة، لأن الراشد قد تعود في صغره التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، فصار ذلك له خلقاً وعادة لم يستطع منها فكاكاً في الكبر. يقول ابن خلدون: "في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء المَلَكَة. ومن كان مربّاه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه ذلك إلى الكسل، وحمله على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتّمدّن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين"<sup>(52)</sup>.

ولم يكتف ابن خلدون بهذه الإشارة إلى الآثار المترتبة عن العنف في التربية بل ضرب لنا مثلاً واقعياً من تاريخ الشعوب التي فقدت الثقة بالنفس في

(51) ابن الجزار، سياسة الصبيان وتدريبهم، 134-138.

(52) ابن خلدون، المقدمة، 597.

زمانه وقبله عندما سلط عليها القهر وأخذت بالعسف. يقول ابن خلدون : "وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقرار، وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرَج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه. (أي : العسف والقهر في التأديب)" (53).

دعا ابن خلدون إلى الرفق بالمتعلم واجتناب الشدة في تأديبه وتهذيبه. ويبدو أن ابن خلدون قد استحسَن وصية الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين، واعتبرها من أحسن مذاهب التعليم، ومما جاء فيها :

"يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيدها إياه، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة" (54). وأجمل منها وصية مسلمة بن عبد الملك إلى مؤدب ولده حيث قال : "إني قد وصلتُ جناحك بعضدي، ورضيتُ بك قريباً لولدي، فأحسن سياستهم تدم لك استقامتهم، وأسهلُ بهم في التأديب عن مذاهب العنف، وعلمهم معروف الكلام، وجنبهم مثاقبة اللئام، وانهم أن يُعرفوا بما لم يُعرفوا، وكن لهم سائساً شفيقاً، ومؤدباً رفيقاً

(53) ابن خلدون، المقدمة، 598.

(54) شلبي، أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشّاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1954، 39.

تكسبك الشفقة منهم المحبة، والرفق حسن القبول ومحمود المغبة، ويمنحك ما أرى من أترك عليهم، وحسن تأديبك لهم مني جميل الرأي، وفاضل الإحسان ولطيف العناية " (55).

ويتضح مما رأينا أن المربين الأوائل وإن أقرّوا بدور العقاب في التربية إلا أنهم جعلوه آخر طرق التربية بحيث لا يلجأ إليه المربي إلا عند الضرورة، وضمن حدود معينة، وشروط محددة، فهم قد فاضلوا بين الأساليب التربوية التي تعتمد المدح والثناء والترغيب والأساليب التربوية التي تعتمد العقاب. ويبقى الثواب والمدح والثناء هو الأسلوب الأمثل عند التربويين، والحافظ الأقوى للتعلم، ولذلك طالبوا المعلم بالمبادرة به قبل غيره، وأن لا يلجأ إلى غيره إلا لحاجة ملحة قد تفرضها طبيعة الصبي كأن يكون الصبي قليل الحياء مستخفاً بالكرامة، قليل الأففة محباً للكذب. وفي ذلك يقول أبو الحسن القابسي : "وإذا هو أحسن يغبطه بإحسانه من غير انبساط إليه ولا منافرة له ليعرف وجه الحسن من القبيح فيتدرج على اختيار الحسن".

### ج- مسائل تربوية أخرى :

احتوت المصنفات التربوية عدّة مواضيع أخرى عالجه المفكرون وأبدوا فيها آراءهم ونسرد أمثلة منها حتى ننبين قيمة هذه الكتب في المجال التربوي.

ففي مسألة اختيار معلم الأطفال يجب التحري في انتخاب المعلم الذي يتولى تعليم الصبيان، ويجب أن يتّصف بحسن الأخلاق، وتتوفر فيه خصال رشيدة جمّة، منها الاشتهار بالاستقامة والعفاف، والعدالة مع الخبرة العامة بالقرآن وعلومه. والإمام القابسي يرى أنه ينبغي أن يكون مهيباً لا في عنف، لا يكون عبوساً مغضباً، ولا مبسطاً، مرفقاً بالصبيان دون لين، وينبغي أن يخلص

(55) ابن أبي الدنيا، أدب الدنيا، 1410 هـ، 1/ 518.

أدب الصبيان لمنافعهم. ولا يحق للمعلم أن يقضي شؤونه وقت التعليم وبإمكانه استخدام مساعد له يسمى العريف.

وفي مسألة راحة الأطفال فرض التربويون المسلمون الأوائل أياما للراحة والعطل المدرسية، وذلك مستحب لقوله عليه الصلاة والسلام (رَوّحوا القلوب ساعة بعد ساعة) فكان التلاميذ يرتاحون يومي الخميس والجمعة حتى ينشطوا لباقي أيام الأسبوع. كما يرتاحون في أيام الأعياد لا سيما في عيدي الفطر والأضحى<sup>(56)</sup>.

وفي مسألة المقبلين على الكتاتيب من الأطفال فهم في الغالب من الذكور، وقلة منهم من الإناث. ولم تتعرض المصنّفات التربوية لمسألة تعليم الإناث إلا نادرا وعرضا. وقد أشار كل من ابن سحنون والقاسبي إلى ذلك. فابن سحنون يبين أن تعليم الإناث كان قائما على الأقل في المرحلة الأولى من التعليم وهي مرحلة الكتاتيب<sup>(57)</sup>. أمّا القاسبي فإنه عندما تحدث عن تعليمهن حذر من تعليم المرأة لبعض الفنون مثل الترسل والشعر وما شابههما<sup>(58)</sup>.

إلا أن المؤكد كما ذكرنا أن الإناث كن يتعلمن بالكتاب، وفي إشارة ابن سحنون إلى فصل الجوّاري عن الغلمان دليل على أن البنات كن يتعلمن.

ويبدو أن الفصل بين البنين والبنات لم يكن بالمسألة الهامة التي تشغل بال العلماء والكتاب، وهذا يعود إلى طبيعة المجتمع الإسلامي، وقوة تقاليده آنذاك، لذلك صرّح ابن سحنون أن الاختلاط مكروه إذا كان الفصل ممكنا

(56) ابن سحنون، آداب المعلمين، 79-80.

(57) ابن سحنون، آداب المعلمين، 85.

(58) القاسبي، الرسالة المفصلة، 95.

وقال : "وأكره للمعلم أن يعلم الجواري، ويخطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن" (59).

## الخاتمة :

هذه بعض ملامح المصنفات التربوية وما جاء فيها، ودلت كلها على تطور التعليم ببلادنا في الفترات الإسلامية الأولى أي في القرون الأربعة الأولى للحضور الإسلامي بالمنطقة. ورغم الانتكاسة الحاصلة في ميدان التعليم والثقافة بعد الزحف الهلالي فإن الحياة التعليمية عادت إلى نشاطها زمن الحفصيين خاصة بالمدن وهو ما يفسر عناية ابن خلدون بهذا المجال التربوي المهم في تنشئة المجتمع.

وحديثنا عن المصنفات التربوية الموجودة بإفريقية لا ينسينا ذكر المصنفات التي ألفت في مختلف مناطق العالم الإسلامي الأخرى ونقتصر هنا على ذكر كتابين اثنين : أولهما : كتاب "المدخل" لابن الحاج (ت737هـ/1336م)، العالم المغربي الذي عاش السنوات الأخيرة من حياته في مصر. وعالج ابن الحاج في كتابه الكثير من القضايا الاجتماعية والأخلاقية والعلمية والتعليمية وناقش كذلك مجمل القضايا المتعلقة بالكتاتيب ودور المؤدب باعتباره المحور الذي تدور عليه العملية التربوية للنشئة.

وثانيهما : كتاب "تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال" لابن حجر المكي الهيثمي (ت973هـ/1565م). والكتاب صغير ومهم تطرق فيه مؤلفه من خلال كتابة الآيات والأحاديث إلى مواضيع فضل التعلم والمعلمين وطرق التعليم وعلاقة المعلم بتلاميذه وأوليائهم. وقد تولى الباحث المصري مجدي السيد إبراهيم تحقيق الكتاب والتعليق عليه ثم تولت نشره مكتبة القرآن بالقاهرة سنة 1987.

(59) ابن سحنون، آداب المعلمين، 89.